التفكير النقدي في عصر العولمة والأنترنيت

محمد بُوسَلاَّم

كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة محمد الخامس بالرباط

الملخص

تقف مناهجنا رغم توالي محاولات التصحيح والإصلاح منذ عقود عند حدود التعلم ولا تضمن التعليم لأنها تركز على المضامين وتغلّب النقل على العقل. وهي تبدو كأنها تكبل التفكير وتُحجِّم النقد مما ينعكس سلبا على المتعلمين الذين يجدون أنفسهم عاجزين عن التفكير والتعبير واتخاذ القرار وممارسة الاختيار وحماية أنفسهم من كل من يصطاد في الماء العكر سواء في الواقع الحي أو الفضاء الافتراضي. ويتأكد هذا في تعامل ناشئتنا مع الأنترنيت. فكثير منهم يقع في شباك القرصنة التكنولوجية ويمارس أعمال النصب والاحتيال والشذوذ الفكري والجنسي والخلاعة والتطرف والانخراط في جمعيات محظورة وغير ذلك. وبسبب افتقادهم للقدرات الفكرية والنقدية اللازمة - التي تؤهلهم للفعل ورد الفعل، فهم لا يستطيعون الفصل بين الغث والسمين والإبحار في فضائه بأمان ودراية ، فيظلون تائهين في أهواله العظمى مما يتطلب خطة إنقاذية "منهاجية" على جناح الاستعجال.

لا نقول بأن "عقارب ساعة الإصلاح قد تعطلت في ورش التربية والتكوين"[1] . لكن النظام التربوي المغربي (من الروض إلى الجامعة) لم يستطع (ونحن أصبحنا نعيش في عصرالأنترنيت) التخلص من تغليب الكم على الكيف والاستمرار في ترجيح كفة النقل على العقل. فهو عموماً يعطي الأسبقية للمعلومة ولا يهتم إلا لِماما بتنمية التفكير والنقد فلا يستطيع بالتالي أن ينافس أصناف التعليم المعاصرة التي تسابق مناهجُها الزمن لتفك عَكَش ما بقي عالقاً بها من عراقيل التفكير المُقيَّد[2]. لذلك فهي تراهن على رعاية العقل ودعم التفكير والنقد وتفتح المجال لطرح كل الأسئلة في كل المجالات لأنها تعي أن دور التربية الفعلي يكمن في تنشئة أجيال كاملة التكوين لن تكون بغير الاعتماد على ذاتها العاقلة المفكرة قادرة على الفهم والإدراك السليمين والفصل بين الشك واليقين والاستدلال بالحجة والبرهان لممارسة الاختيار الصحيح واتخاذ القرار المناسب في مجتمعات الحداثة والمعاصرة الفعليين[3].

أما مناهجنا فتبدو كأنها تتهيبُ من تنشئة العقول وتراها تبلبل التفكير وتراوغ مسارات البحث عن الحقائق وتحجِّمُ طاقات الفكر وتعرقل ملكات النقد بكل ما يتاح لها من أساليب التناور المؤسساتي مما يجعل تلاميذنا وطلبتنا - كما يلاحظ الجميع- عاجزين عن حماية أنفسهم من كل بلاء ودهاء فتراهم ضعافا

---

[1] عبد الرحيم العطري: **هل دقت ساعة إصلاح الإصلاح**، دفاتر التربية والتكوين العدد 3 السنة 2009 ص.30.

[2] Françoise Bourdier-Savioz : L'erreur n'est pas une faute p.290 ;Paris 2008, l'Harmattan.

[3] أسمح لنفسي بقول هذا الكلام بعد قضاء أكثر من 35 سنة من العمل في رحاب التربية والتعليم بين تدريس في الثانوي (10 سنوات) وتفتيش تربوي (15 سنة) وتقلد مناصب المسؤولية بالإدارة المركزية بالرباط (10 سنوات) وارتباط طويل بالدراسة والبحث الجامعيين.

برأيهم وفعلهم وقولهم وسلوكهم، وقد يلامسون في مواقفهم حدود التطرف ويتحول بعضهم إلى لقمة سائغة في أفواه كل من يصطاد في الماء العكر ضمن الواقع المعيش أو حتى في العالم الافتراضي[4].

فالمناهج الدراسية المغربية في جميع مراحل التعليم تتمسك بكل ما من شأنه أن يرسخ حشو الأدمغة بالمعلومات والحقائق المطلقة والمعطيات النظرية عوض الحرص على تشجيع التفكير والنقد وهما الأفيد والأصلح للحياة[5]. فبتركيزها على المضامين وإهمالها لسبل اكتساب المعارف وتوظيفها كأنها تستهين بعقول المتعلمين ولا تريد بديلا عن استرخاص قدراتهم على الفعل ورد الفعل والبحث والنقد والتحليل والتعامل مع الاختلاف. وهذا هومما يجعلهم غير مؤهلين لمواجهة الحياة ووضع الأمور في نصابها وممارسة حقهم في الحياة مع الاعتراف بحق الآخرين واحترام المخالفين في الوجود والتفكير والقول والفعل[6]. ويؤدي ذلك طبعا إلى فهم معكوس للأشياء وعجز ذهني شبه مرضي على القدرة على طرح القضايا للنقاش وتحديد الأولويات واستعمال قوة العقل وبلاغة اللسان واستصعاب اعتماد أساليب المنطق والبرهان لإثبات رأي أو موقف أو دحض ادعاء. إنها بذلك- رغم اختلاف التنميقات وتوالي التجديدات وتغيير الأماكن والأشخاص والأسماء والمسميات - لا تفتح في عمقها المجال للمهارات العليا ولا تشجع الابتكارات ولا تترك للمدرسين والمتمدرسين كليهما إلا هامشا طفيفا من الحرية فيجدون أنفسهم مجبرين على البحث عنها خارج الفضاء الدراسي وفي وسائط الاتصال الحديثة وغيرها. إنها مناهج لا تضمن التعليم بل تقف عند حدود التعلم[7].

ونحن لا نقول إن المعارف عديمة الفائدة، أبدا لأن " التفكير لا يحدث بمعزل عن المضمون"[8]. لكن ممارسة التفكير فيها ومناقشتها وتحليلها وقبل رفضها أو قبولها في جزئها أو كلها ينبغي أن يكون هو الهدف الأسمى من التربية الواعدة لأن "العقل المفكر خيرٌ من العقل المليئ" حسب قول مونطين[9] . وذلك هو التعلم الصحيح الذي لن تكون هناك تربية أخرى حقيقية بدونه[10]. وعليه فأحسن طريقة لضمان التربية على امتداد العمر هي ترسيخ القدرة على التفكير والنقد وتشجيع مهارة البحث الشخصي التي تعين المتعلم على شحذ ملكة تقليب النظر في الأشخاص والأفكار والآراء والمنجزات فيجعل ذلك جزءاً من سلوكه اليومي[11]. فبواسطة التفكير والنقد تضمن الناشئة التمييز بين "الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة وتقطع الشك باليقين"[12]؟ فالرهان مازال مطروحا في جميع مراحل التعليم

---

[4] سعيد بن سعيد العلوي : **شروط المصالحة مع السياسة في المغرب** ص 10، الدار البيضاء 2006، منشورات الزمن.

[5] مجدي عزيز إبراهيم: **قضايا في المنهج التربوي** ص.35، القاهرة 1987، مكتبة الأنجلو مصرية.

[6] عبد الفتاح إبراهيم تركي: **نحو فلسفة تربوية لبناء الإنسان العربي** ص.115، الإسكندرية 1993، دار المعرفة الجامعية.

[7] لطفي بركات أحمد: **التربية والتنمية** ص.110، القاهرة 1989، مكتبة النهضة المصرية.

[8] محمد محمود الحيلة: **طرائق التدريس واستراتيجياته** ص.466، القاهرة 2012، دار الكتاب الجامعي.

[9] « Michel de Montaigne avait si bien dit dès le XVI s:" Une tête bien faite vaut mieux qu'une tête bien pleine

[10] حسن حنفي: **صعوبة أن تكون مثقفا عربيا**، مجلة المستقبل عدد27 ص.121، ماي 1981.

[11] المحجوب عرفاوي: **القراءة الحلم المؤجل**، جريدة المساء العدد 1749 ص.18 ، 8 ماي 2012.

[12] . أبو حيان التوحيدي: **الإمتاع والمؤانسة**، الجزء الأول ص. 108، القاهرة 1953، د.ن.

المغربي على ضرورة الاهتمام بترسيخ القدرة على التمييز بين الغث والسمين، وتوسيع الرؤية وفتح آفاق المدارك السامية التي تجعل التعليم يستمر على امتداد الحياة كلها[13].

قال باسكال Pascal منذ القرن السابع عشر الميلادي بأن " الكثير من العتمة تغمر فضاء الحقائق المطلقة". وأردف سبينوزا (الفيلسوف الهولندي الشهير) وكأنه يرد عليه : إن ما يهمنا نحن البشر أكثر هو أن "نفهم الواقع فهماً صحيحاً"[14]. وبما أنه لا يوجد أحد يمتلك الحقيقة المطلقة دون غيره ، فينبغي ترك المجال للتربية لتوسع دائرة كفاية التفكير النقدي لدى الناشئة لتفهم نفسها ومحيطها وتستطيع التلاؤم مع واقعها باستحضار البعض أو الكل من الماضي ليستفيد منه المستقبل[15]. وفي هذا الصدد لابد أن يقوم أهل التربية والتكوين والبحث العلمي كلٌّ في دائرة اختصاصه بدوره الكامل من أجل السير في هذا الاتجاه وتصحيح المواقف والسلوكات لدعم التفكير والنقد وفهم "الحقائق" في سياق مجتمع جديد لن تنفع فيه صراعات المصالح وحروب اقتسام النفوذ، بقدر ما ستحل فيه قوة الأفكار محل قوات الجيوش[16].

إن الحاجة "ماسة أن ننمي عند أطفالنا منذ الصغر مهارة التفكير الناقد الذي لا يعني النقد فقط بل القدرة على تأجيل الحكم على الأشياء وفحصها قبل قبولها واستعراض البدائل قبل الاختيار"[17]. أما إذا كان " التفكير سيتيح للمتعلم فرصة التأمل والتعلم والوقاية من الخطأ واحترام قيمة التجريب" فذلك هو أعز ما يطلب في مجال التربية والتكوين الحقيقيين[18] .

إن الحياة ابنة شرعية للتطور، وعلى المدرسة أن تساير هذا التطور قبل أن يتجاوزها . فهي مطالبة أن ترافقه وتشجع المتعلمين على الفهم وتحليل المعطيات باستعمال العقل والتفكير الناقد لاسيما في المجتمعات العربية الإسلامية حيث ما زالت مستويات استعمال العقل والتفكير والنقد ونِسَب التعليم والثقافة والوعي متدنية بالمقارنة مع غيرها من باقي دول العالم[19]. وتلك من أصعب المهام التي تتحدى أهل التربية والتكوين والبحث والعلم على المدى المتوسط والبعيد في رأينا.

لقد قال أحد عقلاء الغرب " إن الحروب تولد أولا في أذهان الناس ويجب أن تبني مناهج السلام في أذهانهم"[20]. كما أن الكوارث العظمى قد تقع في العقول قبل الأبدان. ونظرا لوعيه بهذا الأمر، فقد ألغى رئيس

---

[13] Martine Fournier : **Eduquer et former** p.7, Auxerre 2016 , Editions Sciences humaines, Stanislas R.Baleke : **Une pédagogie pour le développement social** p.261 , Paris 2011 , l'Harmattan.

[14] Roger -Pol Droit, Dominique Descotes **: Pascal, pensées** p.353, Paris 2008 , Flammarion

[15] Alfred Sauvy : **L'Europe submergée, sud- nord dans 30 ans**, p.43 Paris 1987, Editions Dunod.

[16] Barack Obama : **L'audace d'espérer, une nouvelle conception de la politique américaine** p.31, Saint Armond-Montront(Cher), 2008, , Presses de la Cité, traduit de l'anglais par Jacques Martinache.

[17] مؤلف جماعي: **ما لانعلمه لأولادنا** ص.71، القاهرة 2013، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة.

[18] محمد محمود الحيلة: **طرائق التدريس واستراتيجياته** ص.468، القاهرة 2012، دار الكتاب الجامعي.

[19] جاك حلاق **: الاستثمار في المستقبل** ص.31، عمان 1992، مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في العالم العربي 1994.

[20] عبد الكريم غريب: **مع المهدي المنجرة** ص. 34، الدار البيضاء 2007، منشورات علوم التربية ، مطبعة النجاح الجديدة.

كوسطاريكا الأسبق سان رياس سانشيز(San Rias Sanchez) في خطة غير مسبوقة في عالم السياسة مؤسسة الجيش في بلاده وأمر بتحويل ميزانيته للنهوض بقطاع التربية والتعليم لبناء السلام [21] ! لقد كان هذا الرجل هرماً من أهرام البشرية المعاصرة، وسبق بتفكيره أهل زمانه، فاستحق جائزة نوبل للسلام التي نالها فعلاً. فبثاقب نظرته المستقبلية أدرك أن البنادق والجيوش لا تضمن الحقوق والكرامة والعدالة الاجتماعية والحرية والمساواة وأن مؤسسات التربية والتكوين والتثقيف هي المؤهلة أكثر من غيرها لتحضير عالم العدالة والتقدم والمساواة والسلام والديمقراطية. وعندما سأل أحد الصحفيين يوماً إمبراطور اليابان عن أهم أسباب تقدم بلاده في وقت وجيز (بالمقارنة مع غيرهم من البلدان الغربية التي استغرقت قرونا لتحقق تقدمها) قال: "لقد بدأنا بكل ما انتهى به الآخرون وتعلمنا من أخطائهم وأعطينا المعلم حصانة السفير ودفعنا له راتب الوزير"[22]. يا لحصافة رأي الرئيس الكوسطاريكي ويا لروعة إصابة الهدف في الصميم من لدن هذا الإمبراطور الياباني!

إن التربية والتعليم جزءٌ لا يتجزأ من حقوق الحياة [23] . فليس " بالخبز وحده يحيى الإنسان" رغم أنه ضروري للعيش[24] . ولذلك فالتعليم "لا ينفصل عن السياسة بل يرتبط بها"[25]. من أجل ذلك فإن أحسن هدية قد نقدمها للأجيال القادمة هي أن نأخذ بيدها حتى تتقن أساليب التفكير وتتمكن من مهارة النقد منذ السنوات الأولى من الدراسة ونعمل على التخفيف عليها من الحشو الذي لا يساهم إلا في إثقال الملكات وحصر القدرات[26]. ولقد أكد خبراء الترقب وعلوم المستقبليات أننا نعيش اليوم في قرن ستكون فيه جل ثروات المستقبل غير مادية، أي أنها ستكون من صنع التفكير البشري. ومن هذه الثروات والمبتكرات نذكر مثلا الوسائط الحديثة للاتصال والإعلام التي يأتي الأنترنيت على رأسها.

أصبح الأنترنيت حالياً وسيلة لاغنى عنها في جميع الأركان ولدى جميع الفئات والطبقات[27]. وبلغ عدد المنخرطين فيه بالمغرب سنة2015 حوالي 17.5 مليون أي 56 % من السكان(تونس 43% والجزائر16.5%)[28]. ولقد وجد فيه الجميع في كل ربوع العالم منافع شتى . فالآباء يستعملونه لمعرفة أحوال الطقس ومواعيد السفر بالقطار والطائرة ، وحجز الإقامة في الفنادق ودفع واجبات الضريبة وأداء فاتورة الماء والكهرباء وغيرها. ومن خلاله يبحث الأبناء عن الأخبار ويتجولون عبر الشبكات الاجتماعية ويستمعون إلى أغانيهم المفضلة ويمارسون التحاور المكتوب والمسموع والمرئي. ويستعين به الابن لتهيئ

---

[21] . Danielle Mitterrand : **Le livre de ma mémoire** p.361, Paris 2007, Jean − Claude Gawsewitch Editeur

[22] حسن ظاهر بني خالد: **تنمية مهارات التفكير الإبداعي** ص.11، عمَّأن، 2013، دار أسامة للنشر والتوزيع.

[23] برهان غليون: **اغتيال العقل ومحنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية**_ص 13، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر.

[24] حامد عمار: **في بناء الإنسان العربي** ص. 3 ، الإسكندرية 1988، دار المعرفة الجامعية.

[25] مجدي عبد الوهاب قاسم، صفاء أحمد شحاتة: **صناعة مستقبل التعليم الجامعي** ص.31،القاهرة 2014، دار الفكر العربي.

[26] مؤلف جماعي: **ما لانعلمه لأولادنا** ص.71، القاهرة 2013، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة.

[27] جاسم محمد علي الطحان: **التعليم الإلكتروني** ص.17، بيروت 2014، دار الكتاب الجامعي.

[28] Wikipedia, Internet au Maroc

عروضه وشرح الكلمات وحل المعادلات الرياضية والفيزيائية والبحث عن أسماء الأعلام والأمكنة والتواريخ وتحضير التمارين والتدرب على العزف على الآلات وتبادل الحديث مع أصدقائه وصديقاته والترفيه عن نفسه. وأصبحت الطفلة الصغيرة التي لا يتعدى عمرها أربع سنوات تتحرك في فضائه بطريقة سريعة تثير إعجاب الكبار، وقد تُعلم بعض الكبار كيف يبحرون فيه، وعبره يقرأ أخوها الأكبر القصص ويستمتع بلعب التسلية والرسوم المتحركة والمقالب المضحكة والفيديوهات الغريبة.

كل ذلك يؤكد أن دور الأنترنيت في تنشئة الأجيال الصاعدة سيكون كبيرا ، هذه التنشئة التي ستكون مستقبلا اجتماعية وإلكترونية و" سيصبح الدماغ البشري دماغا إلكترونيا"[29]. أو ليس الأنترنيت ابنا للعقل والفكرالبشري؟ إذا كان الأمر كذلك فإن غياب استعمال التفكير النقدي في التعامل معه قد يجلب الكثير من المصائب لمتداوليه. فعبره قد يقع المرء دون تفكير في شباك القرصنة التكنولوجية ويمارس النصب والاحتيال وقد يقترف بعض الأبناء أشكالا من الشذوذ الفكري والجنسي والخلاعة والتطرف ويتم استقطابهم للانخراط في جمعيات مشبوهة وتعلم كل ما يضر ولا ينفع كاعتناق أفكار التطرف والبحث عن طرق اختراق الأسرار الشخصية والرسمية وتقنيات صناعة المتفجرات وغيرها من الأفعال المحظورة. هذا زيادة على أن فضاؤه ليس محصنا وبمقدور المجموعات المتزايدة الأعداد من "الهاكرس" وغيرهم من الراسخين في علم الأنترنيت ومحترفيه ممن يتوفر على "قدرات اختراق عالية" أن تدخل إلى أي حاسوب وتفعل به ما تشاء دون علم من صاحبه وكأنها تمتلكه. ولو أن الحاسوب يبدو قابلا للإغلاق والصيانة عبر مختلف "مفاتيح المرور" و"كلمات السر" وغيرها من المصطلحات المرموزة، فالدخول إليه واستعمال محتوياته ليس بالأمر الصعب. إنهم قادرون على قرصنة المواقع والبطاقات البنكية وأرقام الحسابات المالية ومعرفة الأسرار الشخصية ورصد مراسلات الإيميل واقتناص الصور والمكالمات واستخراج الأشياء الحميمة منه. وبتزايد كفاءاتهم سنة بعد أخرى أصبحوا يفكون أكثر كلمات السر إيغالا في الغموض ويخترقون معطيات المؤسسات الرسمية والمالية والسياسية والعسكرية[30]. فمن لم يكن متمكنا من قدراته العقلية والفكرية والنقدية الكافية، فقد يصيبه في فضائه ما لا يحمد عقباه وأول ما يطلب من مستعمليه أن يكونوا متسلحين بكل طاقاتهم العقلية والفكرية والنقدية .

وهذا ما دعا إليه الباحث الألماني Alexander Lortz حين قال"ينبغي أن نعيد تربية أبنائنا وتكوينهم حتى يسايروا العالم التكنولوجي المفيد لكنه متعدد المخاطر. وليس المهم أن يتعلموا كيف يفككون الحواسيب ويصلحون أعطاب المفاتيح الحاملة للمعطيات وغيرها، ولا أن يعرفوا كيف تشتغل، بل ينبغي أن يتعلموا كيف يتدخلون في برمجياتها تقنيا ويفهمون متى يعدلون ويصححون ويحمون معطياتهم الشخصية ويتحكمون في أساليب الإبحار عبر الأنترنيت والتصرف في فضائه عن دراية ، فلا أمان ولا حرية مع الآلة الرقمية[31]. ذلك هو ما نتوق إليه نحن بدورنا إليه عبر مناهجنا في المغرب لأننا ما زلنا لا نتحكم في آليات التفكير والنقد المعرفية البسيطة فأحرى أن نرقى إلى المستويات الأعلى منها مما يطلبه هذا التعامل

[29] محمد خرباش: **تكنولوجيا الإعلام والتواصل في التدريس والتعلم**، دفاتر التربية والتكوين العدد 3 السنة 2009 ص.30.

[30] CCI TV : Sécurité informatique, vos mots de passe et code d'accès sont-ils inviolables, Metz 28 mai 2013, rencontre avec un Hacker E.TIC, conférence du club N- Tech.

[31] ARTE: Alexander Lortz : La cour européenne de justice, le droit à l'oubli et la protection des données personnelles, 13 mars 2014.»

السريع مع الوسائط الحديثة للإعلام والاتصال. أوهل سنكتفي بالدخول مع الداخلين إلى بحر الأنترنيت ولتجرفنا أمواجه وتنالنا أهواله مثلما تجرفنا باقي منتجات العولمة؟

موجز بطاقة تعريف بالكاتب

الإسم : محمد بوسَلاَّم

العنوان الإلكتروني: bousselam.med@gmail.com

1. المسار الأكاديمي

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- حضر دكتورة دولة حول موضوع "اللباس التقليدي في المغرب" في نفس الكلية.

2. المؤلفات :

- تاريخ بني ملال ،الرباط 1991 ، مطبعة المعارف الجديدة.
- تدبير شؤون المكتبات ومراكز التوثيق، الرباط 1998 ، بابل للطباعة والنشر والتوزيع.
- اللباس التقليدي بالمغرب (الجذور والإنتاج والأصناف والتطور) ، الرباط 2014، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- معجم الدارجة المغربية (الجذور والاختلافات الجهوية)، الرباط 2014، جزء أول ، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- Le costume traditionnel marocain (1912-2012), Sarrebruck 2016 , Ed. Universitaires Européennes.
- أزمة القراءة والثقافة في المغرب والعالم العربي (الداء ووصف الدواء)، الرباط 2017، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- معجم الدارجة المغربية الرباط 2018، الجزء الثاني ، جزء 2 دار أبي رقراق للطباعة والنشر.